المحاضرة (02): علم النفس الأسري (النشأة، علاقته بالعلوم الأخرى)

تكتسب دراسة نشأة علم النفس الأسري أهميتها من كونها تبرز الخلفيات النظرية والتاريخية التي أسهمت في تشكله، كما أن الوقوف عند علاقته بالعلوم الأخرى يوضح طبيعته التكاملية، ويؤكد أنه علم تقاطعي يستفيد من عدة تخصصات. وعليه، تهدف هذه المحاضرة إلى التعريف تتبع نشأة علم النفس الاسري وتطوره، مع تسليط الضوء على علاقته بالعلوم الأخرى، بما يسهم في بناء فهم شامل لدوره في تفسير الظواهر الأسرية ومعالجة مشكلاتها.

1-نشأة علم النفس الاسري:

يقوم علم نفس الأسرة على النظرية الابستمولوجية النسقية (Systemic Epistemology)التي تسعى إلى تجاوز التركيز الفردي السائد في العديد من الاتجاهات النفسية التقليدية، من خلال اعتماد منظور شامل يفسر السلوك الإنساني في سياقه العام. وقد نشأ هذا التخصص في بداياته ضمن إطار حركة العلاج الأسري، غير أنه تطور لاحقا ليصبح مجالا علميا أوسع يتناول الإنسان ضمن منظومة مترابطة من العوامل المتداخلة. فهو لا يقتصر على الممارسة العلاجية، بل يهتم بفهم السلوك الإنساني ضمن بنية سياقية متكاملة تشمل مستويات متعددة، من العوامل الفردية (Intra-Individual) إلى العلاقات البينشخصية (Interpersonal) وصولا إلى العوامل البيئية أو الكلية (Macrosystemic) التي تؤثر في التفاعل الأسري والاجتماعي(Bray & Stanton,2012,p.6).

مع مرور الوقت، أصبح علم النفس الأسري أكثر شمولية وعمقا، حيث شهد خلال الربع الأخير من القرن الماضي تطورا وتوسعا في مجال اهتمامه، فقد زاد التركيز على دراسة الأنظمة الفردية والبيولوجية، واتسع نطاق اهتمامه ليشمل القضايا النسقية الأوسع مثل الثقافة والعرق والسياسة. وقد اكتسب بذلك قدرا متزايدا من النضج والوعي العلمي بفضل اعتماد مناهج بحثية حديثة ومتطورة، جعلته لا يقتصر على استكشاف الحقائق النظرية فحسب، بل يتجاوزها ليمارس كعلم إكلينيكي يسعى إلى تعزيز الصحة النفسية والرفاه للأفراد والأسر في إطار فهم شمولي متكامل للعلاقات والسياقات التي تؤثر فيهم.(Pinsof, & Lebow, 2005,p.3-4)

هذا التطور لم يكن عشوائيا، بل جاء كرد فعل على القيود التي فرضتها المناهج النفسية التقليدية، التي كانت تنظر إلى الأفراد ومشكلاتهم بطريقة خطية وفردية. فبينما ركزت التوجهات التقليدية على التحليل الداخلي للفرد وتجزئة الإدراك والعاطفة، قدم علم النفس الأسري منظورا يرى أن "الكل أكبر من مجموع أجزائه"، مؤكدا أهمية فهم السلوك الإنساني ضمن شبكات العلاقات التي ينشأ فيها.

وعليه يمكن تلخيص الجذور المبكرة لهذا التخصص في عدة نقاط أساسية:

- البداية كانت بظهور التفكير النسقي لأن الفئات الفكرية الأرسطية والأفلاطونية التقليدية، التي تتسم بالخطية والاختزال، لم تكن قادرة على تفسير النتائج الشمولية للأنظمة العلائقية وتأثيرها المعقد على السلوك البشري.
- قدمت المقاربة النسقية فكرة أن النسق (System) هو الوحدة الأساسية للتحليل وليس الفرد وحده، معتبرة أن أنماط السلوك العلائقي متشابك.
- تميزت بدايات هذا التخصص بمجموعة من الرواد الأوائل (مثل مينوشين، بيتسون، هالي...).
- ومع مرور الوقت، تحول المجال تدريجيا من ممارسة العلاج الأسري إلى التخصص العلمي المعروف بعلم النفس الأسري، ليصبح تخصصا مهنيا يمتلك قاعدة معرفية وأساسا علميا يوجه الممارسة والبحث والتدريب.(Thoburn & Sexton, 2015)

2-علاقة علم النفس الاسري بالعلوم الأخرى:

علم النفس الأسري مجال يجمع بين نظريات وأساليب علم النفس مع عدد من العلوم الأخرى لفهم السلوك البشري ضمن الأطر الأسرية والسياقات الاجتماعية والثقافية. فهو لا يدرس الأفراد بمعزل عن بيئتهم، بل يرى الأسرة كنسق اجتماعي مترابط تتداخل فيه العوامل النفسية، الاجتماعية، البيولوجية والثقافية، مما يوسع دائرة ارتباطه بالعلوم التالية:

2-1-علاقة علم النفس الأسري بالسيبرانية:

ارتبط نشوء علم النفس الأسري ارتباطا وثيقا بالتطورات العلمية التي شهدتها العلوم خلال النصف الأول من القرن العشرين، خاصة مع بروز النقد الموجه لمبدأ الاختزال الذي ساد في العلوم التقليدية. فقد أسهمت السيبرانية، التي أسسها عالم الرياضيات نوربرت وينر (Norbert Wiener, 1954) ، في

إحداث تحول جذري في فهم الظواهر الإنسانية، إذ ركزت على مفاهيم التغذية الراجعة، والتنظيم الذاتي، والتواصل، والتحكم داخل الأنظمة .وقد وفّرت هذه المفاهيم إطارا نظريا جديدا مكن الباحثين من دراسة الأسرة بوصفها نسقا ديناميا مفتوحا، لا مجرد مجموعة من الأفراد المنفصلين. (Hecker, Mims & Boughner,2014,p.44)

وعليه، يمكن القول إن السيبرانية شكلت أحد الأسس النظرية المركزية التي أسهمت في بناء علم النفس الأسري المعاصر، من خلال تزويده بأدوات تحليلية لفهم الأسرة كنظام متكامل.

2-2-علاقة علم النفس الاسري بعلم النفس الاجتماعي:

يمكن تعريف علم النفس الاجتماعى بأنه أحد فروع علم النفس وأنه ذلك الفرع الذي يختص بدراسة السلوك الاجتماعى للفرد والجماعة كاستجابة للمثيرات الاجتماعية. فهو إذن العلم الذي يدرس سلوك الفرد في علاقته بالآخرين، إذ يستطيع هؤلاء الآخرون أن يحدثوا أثرهم في الفرد، إما بشكل فردي أو بشكل جماعي، كما يمكنهم أن يؤثروا فيه إما بصورة مباشرة عن طريق وجودهم في تجاور مباشر مع الفرد، أو بصورة غير مباشرة عن طريق نماذج السلوك التقليدية أو المتوقعة من الناس والتى تؤثر في الفرد حتى ولو كان بمفرده.(آل عبد الله، 2012، ص7)

وعليه فعلم النفس الاجتماعي يوضح كيف تتأثر السلوكات والتفاعلات داخل الأسرة بالأنماط الاجتماعية، القيم الثقافية، والأدوار المتوقعة من الأفراد ضمن المجتمع. فبينما يركز علم النفس الأسري

على دراسة التفاعلات والعمليات والأنماط داخل الأسرة، يدرس علم النفس الاجتماعي السلوك البشري داخل المجموعات الأكبر وتأثير المجتمع على الفرد. العلاقة بينهما تكمن في أن الأسرة تعد أول بيئة اجتماعية يختبر فيها الفرد القيم والمعايير والسلوكيات الاجتماعية، ما يجعل فهم ديناميكيات الأسرة أساسيا لفهم كيفية تكيف الفرد داخل المجتمع.

2-3-علاقة علم النفس الاسري بعلم الاجتماع:

من بين فروع علم الاجتماع نجد علم الاجتماع العائلي وهو أحد فروع علم الاجتماع العام، يعنى بالدراسة النظرية والتجريدية للأسرة والزواج بوصفهما ظاهرتين اجتماعيتين، من خلال تحليل الوقائع والأنماط والعلاقات الأسرية، ودراسة الأسرة كنسق اجتماعي يتفاعل مع الأنساق الأخرى في المجتمع، مع التركيز على نشأة الأسرة وتطورها، ووظائفها، وعوامل ثباتها وتغيرها، بهدف إنتاج المعرفة العلمية

التي تسهم في فهم البنية الأسرية وديناميكياتها دون الانخراط المباشر في التطبيق أو التدخل المهني. (العبد الله، عقيل وتركية، 2015، ص ص 9 ،14)

وعليه فعلم الاجتماع العائلي يتقاطع مع علم النفس الأسري في دراسة بنية الأسرة، الأدوار الاجتماعية، العلاقات الأسرية، وأنماط التنشئة الاجتماعية. فالأسر تعد جزءا من المجتمع الأوسع، وتؤثر فيها المتغيرات الاجتماعية مثل الثقافة، الطبقة، والسياسات العامة.

- البحث متعدد التخصصات :تغذي مجالات مثل الصحة العامة، التربية، والسياسات الاجتماعية علم النفس الأسري بمعطيات تساعد على فهم أوسع للتحديات الأسرية وطرق الدعم العملي. وتدعم المجالات العلمية مثل هذه التكاملات بين النظريات والممارسات من زوايا مختلفة .

وفي نهاية المحاضرة، نعرض خلاصة مركزة لأهم الأفكار التي تم تناولها، كما هو مبين في الشكل التالي.

الشكل رقم(03): نظرة شاملة حول نشأة علم النفس الاسري وعلاقته بالعلوم الأخرى (تم الاستعانة بأداة NotebookLM.)